وقف كتبخانه اسلامى

غادة بابل

La Belle de Babylone.

—٣—

هب بيروس من رقاده وهو يكد الفكرة في ايجاد الحيل واختراع سبل الخدع للايقاع بشمشو تخلصا منه وفقا للخطط التي وضعتها له تنو أمة السوء والخيانة الظـاهرة . فمر بالهيكل ودخل القسم المخصص بتسجيل العقود فرأى التجـار والزراع والصيارفة والملاكين والرعاة والسماسرة متألبين جماعات جماعات أمام الكهنة الكتبة لتسجيل عقود البيع والشراء والرهن والكفالة والقرض والايجار والمرابحة وغيرها . وكان الكتبة يدونون هذه العقود على رقم من طين يخطونها عليها بقلم من حديد بالخط المسماري يوقع عليها المتعاقدون او يختمونها بختوم ويشهد عليهم شهود وبين المتعاقدين رجال ونساء .

فهناك من كان يسلف الدراهم على الحصاد المقبل على الحنطة والشعير والذرة والسمسم والقطن والتمر والصوف بربا يتراوح بين عشرين بالمئة وثلاثة وثلاثين وثلث بالمئة . اما ربا قروض الدراهم فيتراوح بين خمسة ونصف بالمئة وخمسة وعشرين بالمئة . وبين الناس من كان يعقد الشركات للقيام بالتجارة مع بلاد اشور ونائري وماذي وعيلام وفنيقية ومصر . ومن كان يؤجر داره ومخزنه ومحراثه وثوره وحقله ومرجـه . ومن كان يبيع اموالا منقولة وغير منقولة او يبيع العبيد والاسرى بل حتى الاولاد

وكان الوسطاء والسماسرة يتفننون في اقناع المتعاقدين ويبذلون جهودهم لتسوية كل الاختلافات التي قد تحول دون اتمام بعض العقود . فتقوم احيانا ضجة عظيمة بين البائع والشاري او الراهن والمرتهن او المؤجر والمستأجر ويتدخل في امرهم الحاضرون لحسم النزاع وكثيرا ما يخرج الاختلاف عن نطاق المفاوضة الى العياط والتنابذ في الكلام والسب والشتم . ويحاول كل

واحد ان يقص على السامعين احاديث طويلة عريضة ليقنعهم انه محق وان خصمه مجحف بحقوقه يريد ظلمه .

وكان بين المتعاقدين اجيبي الصراف الشهير بثروته وعقوده العظيمة فتقدم الى الكاهن المسجل ومعه رجل آخر واخذ يملي على الكاهن شروط عقد عظيم يتضمن مواد عديدة :

١ — قرض عشرين جورا من الحنطة بفائدة تسعين « كا » على كل « جور » (١) .

٢ — قرض احد عشر « جورا » من التمر بفائدة اعتيادية على كل « جور » (٢) .

٣ — مبياع عشرة « جانات » من ارض الزراعة بقيمة خمسة وعشرين شاقلا فضة (٣) .

٤ — قرض « منا » من الفضة بفائدة شاقل واحد عن كل خمسة شاقلات (٤).

فهنا حدث اختلاف بين الصراف والتاجر المعاقد على بعض شروط هذا العقد ومهما حاول بعض الحاضرين ازالة ذات البين منهما بقيت الحالة متوترة وفتق الخصومة لم يرتق بل زاد اتساعا . فتقدم بيروس وتظاهر بانه رسول اله الصلح والسلام ومرهم لتضميد جروح النزاع والخصام . اخذ اجيبي على جانب وخاطبه بصوت خافت وهو يحرك يديه ويقطب حاجبيه ويغمز بعينيه فهز اجيبي راسه وحناه قانعا بما اوحاه اليه الكاهن بيروس . ثم تقدم بيروس من التاجر الاخر وهامس في اذنيه ببعض الالفاظ . والجمع ينظر الى النتيجة واذا بالطرفين قد رضيا بفسخ العقد والغائه عن طيب خاطر . فدهش الناظرون من الكاهن لباقته وقوة تاثيره في الخصمين وتحدث بذلك اهل المدينة .

دار الكلام بين بيروس وبين اجيبي عن قرض دراهم لشمشو وعقد شركة

(١) الجور يساوي ٣٦٠ « كا » وعليه يكون معدل الربا ٢٥ بالمائة .

(٢) الفائدة الاعتيادية تطلق على ٢٥ بالمائة على حد ما نقول نحن الفائدة « النظامية » و تعني تسعة بالمائة .

(٣) « الجان » يساوي ٢٥ عقارا (اكرا) .

(٤) كل « منا » يساوي ٦٠ شاقلا والشاقل يساوي نصف دولار اميركي في يومنا هذا.

معه للتجارة والمقايضة بين بابل واشور وبلاد ناثري. فسخر بيروس بلاغته وبيانه وعلمه وثقافته وافانين خدعه واساليب مينه لاقناع اجيبي صاحبه وحمله على هذا فكان تارة يطري مقدرة شمشو الشاب وامانته ونزاهته وطورا يفيض كلاما في وصف الربح المنتظر من هذه التجارة ويسرد امثالا عديدة ويعدد اسماء تجار بدأوا باسفارهم الى البلاد الغريبة برؤوس اموال قليلة فوافقتهم ريح الحظوظ وكسبوا مكاسب طائلة وهم اليوم من اصحاب الثروات العظيمة والاملاك الواسعة والعقارات المترامية الاطراف . ثم يرجع مرة فيكلمه عن الضمان الذي ياخذه من شمشو عن المال الذي يقرضه وعن الربا الذي يتقاضاه منه عن الدين إلم تنجح التجارة . وقصارى الكلام زين له العمل واظهره رابحا من جميع الوجوه .

ولما توسم فيه امارات التردد زاد على كلامه قائلا : « ان حدثتك نفسك بخوف يا اجيبي وخشيت عواقب عملك فما لك إلا ان تدخل الهيكل الان وتستشير الالهة . فدخل كلاهما واخذ بيروس قنينة فيها زيت مقدس وبعد ان قام بفرائض الدين صب بعض قطرات من ذلك الزيت في حوض ماء واخذ ينظر في الاشكال التي احدثتها تلك القطرات وصور انتشارها على وجه الماء فتحقق حسن العاقبة فافضى به الى اجيبي وهدأه عن حسن المآل . فما كان من صراقنا إلا النزول على ارادة الكاهن الكلداني .

فسر بيروس كل السرور لقطعه الخطوات الاولى من سبيل تدبيره الشيطاني وذهب لساعته الى شمشو واظهر له من عواطف الحب والاخلاص ما حمله على الاعتقاد ان الرجل يبذل مساعيه ويسخر ماليه من الحول والقوة لتشييد صرح مستقبله على اسس مكينة . وبعد ان ساد السكوت بينهما هنيهة قال بيروس: لماذا لا تتعاطى التجارة ؟

شمشو — انت تعلم انني خسرت خسارة عظيمة بفقداني غلات اراضي في سنة الغرق اذ فاض الفرات وسالت المياه في المزارع والحقول وجرف السيل كل ما كان في طريقه من نبات وحيوان وانسان وخرب الجداول والترع وطماها بالغربل . ولم تقف نكبتي عند هذا الحد بل ان الفرات خرج

من عقيقه وغير مجراه فاصبح اليوم بعيدا عن الاراضي التي ورثتها من ابي وبعد ان كانت مشهورة بخصبها وسهولة ريها غنية بغلاتها صارت قاعا بلقعا وخرابا يبابا ينعق فيها البوم والغراب .فلا مال لي لاحياء تلك الاراضي وجر المياه اليها . ولا عندي منه ما يكفيني لاستعين به على التجارة .

بيروس ـ لقد فاوضت بهذا الامر اجيبي الصراف وحسنت له عواقبه . فتردد عن قرضك المال اللازم لتجارتك . بيد اني أقنعه بان تعقد شركة بينكما بشروط تقررانهـا . فتذهب ببضائع وتجارات الى بلاد اشور ونائري .

شمشو ـ الى بلاد نائري ؟ هذه شقة بعيدة واسفار محفوفة بالمخاطر والاهوال فلست من المجازفين بالحياة . إنما اوافق على المتاجرة بين بابل واشور فقط فهل يرضى اجيبي بذلك ؟

بيروس ـ لست سمسارا وما توسطي بهذا الامر إلا لخيرك. فما الذي يوقفك عن السفر الى بلاد نائري . هذه طريق تجارية يسير فيها تجار بلاد اشور فتدر عليهم بالخيرات والارباح.فاذا قمت برحلتين بين بابل ونائري تربح مالا وافرا يغنيك عن الشركة مع اجيبي . (وقف قليلا عن الكلام وهو مطرق ، ثم استانف حديثه قائلا) : وما ذا تفكر فيك حترآء بنت ذلك الصراف اذ ترى شابا في مقتبل العمر قوي البنية يخشى السفر الى بلاد نائري ألا تقول فيك انه جبان رعديد ؟

شمشو ـ ومن اين تعلم ذلك حترآء ؟ وما لفظ اسم حترآء إلا اضطربت شفتاه مرتعشتين كانهما وتران تحت ريشة المطرب .

بيروس ـ كانت تسمع حديثي مع ابيها. ولذا رجعت اليه بهذا الجواب صغرت في عينيها فتحدث بالموضوع بنات المدينة وهو امر لا ارضاه لك ويثقل علي شيوعه بين القوم .

شمشو ـ فشكر شمشو عناية الكاهن به الابوية ورضي باقتراحه ووعده بملاقاة الصراف في القريب العاجل لتدوين العقد . وتوادعا على هذه الغاية وكل

منهما فرح بهذه الصفقة التي يظنها رابحة له : بيروس يعلل النفس بالاماني الطيبة للتخلص من حبيب حبيبته وشمشو يعتقد ان هذا التدبير يقربه من حترآء وبيتها ويمهد له العقبات للزواج منها .

كان اليوم التالي موعد الملاقاة بين اجيبي وشمشو فتم الاتفاق بينهما وتوجها الى الهيكل لتسجيل العقد امام « المشيكم (١) » وهذا نصه :

شمشو بن نجبو قبض عشرين منا فضة بفائدةشاقل واحد عن سبعةشواقل من اجيبي الصراف للتجارة مع بلاداشور ونائري والربح مناصفة بين المتعاقدين.

سن اربام بن جزنشاك ؛ تنار ميدو بن اروماكل ؛ ازاك انينا بن لول تنشبور .

شهود .

امام المشكيم شراني بن سابو .

في اليوم الخامس والعشرين من شهر ادارو وهي السنة الاولى للملك شمش موجين.

وختم هذا كل من المتعاقدين والشهود بختوم ، احدها من العقيق على شكل اسطوانة مثقوبة من الطرف الواحد الى الطرف الاخر وقد نظمت في خيط. والثاني من اللازورد والاخر من اليشب والاخر من حجر دم الاخوين اما ازاك لول تنشبور فلم يكن عنده خاتم فاتى ووضع علامة راس ظفر اصبعه في صفحة العقد عوضا عن الختم .

وكان على خاتم العقيق اسم اجيبي وعليه صورتا الاهين متقابلين الواحدة بازاء الاخرى وقد مد كل منهما يدا لتقبض على انبوب يمص به شرابا من قدح وضع على مائدة مرتفعة . وكانت هاتان الصورتان صورة اله القمر « سن » ورفيقته ننجل . وكانت صورة الاله شمش مع اتباعه الالهة منقوشة على خاتم شمشو مع اسمه واسم ابيه . وكانت صورة البطل جلجمش يصارع اسدا محفورة على خاتم احد الشهود وصورة خلائق مجنحة امام شجرة الحياة على خاتم الشاهد الثاني .

***

(١) الموظف الذي يسجل العقود ويقابله اليوم عندنا « كاتب العدل » .

شاع خبر هذا العقد وتحدث به الناس في الاندية والبيوت واتت الجارات واخبرت ريماة وابنتها شميرام بقرب سفر شمشو التمكار (١) فبقيت شميرام بين مصدقة ومكذبة هذا النبأ الذي ثقل وقعه على اذنيها وقلبها وحسبت له الف حساب وكانت تنتظر بصبر جميل قدوم ابن عمتها لتقف على جلية الامر ولما استبطأته دعت نجيبتها نتو وقالت لها اذهبي الى بيت عمتي وايتيني بالخبر اليقين عن سفر شمشو الى بلاد اشور ونائري ، واذا رأيت ابن عمتي ادعيه الي . فذهبت نتو وعرجت في طريقها على بيت بيروس فلاقاها الكاهن وهو مستبشر بنجاح الدسيسة واكد لها حقيقة الامر واوصاها بكتمان السر ووعدها بالهيل والهيلمان واعطاها نباتا تجهله وقال لها : دسي هذا النبات المقدس السحري خلسة في الزاد الذي تعده سيدتك لابن عمتها . ففي هذا النبات قوة سحرية تقصي قلب شمشو عن حب شميرام الى الابد لا بل تولد فيه بغضا يفوق التصور فينظر اليها نظرة عداء وحقد . ولكن تتلاشى هذه القوة اذا ما اطلع احد غيرك على الامر وتحنق الالهة والارواح عليك آنئذ لافشاء هذ السر العظيم فتبطش بك وتنتقم منك . ويكون انتقامها لهذه الخطيئة عظيما لا تنفعك فيه الادعية والتعاويذ والصلوات والتقاسيم والبكاء والنحيب والضحايا والقرابين لان الالهة باجمعها تغتاظ منك :يغتاظ منك الثالوث الاعظم « انو » و «بل» و « ايا» ، والثالوث الثاني « شمش » و « سن» و « ادد » (٢) ، وكذلك مردخ واشتر ونرجل ونبو وتشميت ونسكو وكل الالهة المعروفة وغير المعروفة (٣) وتتفق الارواح المؤذية على صب جامات الغضب والالام والشرور عليك وتحل عليك

(١) « التمكار »او « التمكار » كلمة كانت تطلق عند البابليين على التاجر العام اي تاجر الجملة .

(٢) كان يعتقد البابليون بآلهة كثيرة ولهم طبقات مختلفة ومنازل متباينة وينسب الى كل منهم بعض الصفات والاعمال .. وفي راس كل الالهة الثالوث الاول انو و بل و ايا والثالوث الثاني شمش (الشمس) و سن (القمر)وادد (الجو) وكان الالهة يتزوجون ويلدون ويولدون ولهم ازواج .

(٣) كان يعتقد البابليون بوجود آلهة لايعرفونهم .

كالامراض والاوصاب (١) وتعذبك الشياطين اشكو وتيعو واخازو ولبـاسو ونمتار والو وشيدو وجالو والارواح السبعة ، ويفزعك ليلو وليلتو بظهورهما لك في الليل (٢) .

فلما سمعت نتو هذا الوعيد ارتعدت فرائصها وجمد الدم في عروقهـا فقالت للكاهن مالي وهذا المركب الخشن . ولم اقدم على امر فيه من المخاطر والاهوال ما يسحقني سحقا فخذ نباتك ودعني وشأني ، وخلصني من تبعة هذا العمل .

وكان قصد بيروس من هـذا التهويل ان يحمل نتو على كتمان السر ليس إلّا ،ولما انس منها هذا الخوف والذعر خفف من لهجته واخذ يصف لها الخيرات التي تنالها اذا ما نجحت في مهمتها . ووعدها بالتحرير من رقة الرق وبتزويجها وبالاموال الطائلة واستمطار بركات الآلهة والالاهات وبالصحة والعمر الطويل فرضخت لطلبه وهرولت مسرعة الى بيت شمشو وسالته عن سفره متجاهلة كل ما عرفته من بيروس واوقفته على رغبة بنت خاله وقالت له : ان شميرام بانتظارك ورجعت الى سيدتها تحقق لها صحة ما سمعته من جاراتها عن امر سفر شمشو .

اخذت شميرام تملخ في الهواجس وتفكر في مصير هذا الاتفاق الجديد بين ابن عمتها ووالد حترآء رقيبتها في الحب وحارت في التكهن بماخبأته لها الليالي من العجائب والغرائب سواء ربح شمشو او خسر في تجارته ، لانه ان رجع الى بابل رابحا طمع بمصاهرته اجيبي لامحالة وتذللت العقبات القائمة في سبيل

(١) من مأثورات البابليين ان الآلهة هي التي تبعث بالاوصاب والاوجاع والآلام والنكبات والقحط والغرق وهناك ارواح خبيثة او شياطين وابالسة تميت في الارض فسادا وتؤذي البشر .

(٢) ومن تلك الارواح (اشكو) او (اشاكو) مجموع شياطين تورث امراضا هادمة. و (تيعو) يسبب الصـداع والحمى وغير ذلك (واخازو) الفتـاك او اليرقان (وهو مرض الصفرة) . (ولبلسو) قالب الامور ظهرا لبطن و (نمتار) الطاعون (والو) (وشيدو) و (جالو) يمثـلون الفتك او القوة. وكان عنـدهم ارواح سبعة تمتك فتكا ذريعـا لاترحم ولا تشفق وقد جاء وصفها في احدى الاناشيد وصفا يخيف . وهي لا ذكور ولا اناث : و (ليلو) ومؤنثه (ليلتو) روحان تظهران في الليل .

زواجه بحتراء . وان رجع يتعثر باذيال الخيبة وبقيت اموال الصراف في ذمته فيكون الامر على شقين آنئذ فاما يغضب منه اجيبي ويستحكم التنابذ بينهما واما يرضخ لتزويجه من ابنته ليستعين به على الاشغال والتجارة مع البلاد النائية !! وعلى كل ففي هـذا العقد الجديد نظر لانه فتح بابا لتوثيق عرى الوصل بين القلبين . ووضع اساسا لبناء هيكل الحب يضحي عليه بقلبي !!

ولكن اما لي سبيل الى ان اشوش على شمشو هذا العقد وامنعه من التعامل مع اجيبي فاحمل والدي على ان يدفع اليه مبلغا من المال يستعين به على قضاء وطر تجارته في بابل ويشتغل بين ظهرانينا ويكون في غنى عن تجشم مخـاطر السفر وهجراني الى الابد وان لم اتوصل الى ذلك كله امالي طريقة اخرى اضرب بها هـذا العقد بيد سرية او قل بآيات سحرية . اليد السرية ! الايات السحرية ! اوهام وشعوذة !.. اوابد وخرافات .! وجر مغانم للكهنة والسحرة والمنجمين!! إلّا اني اجربها فان نجحت تكون رمية من غير رام وان اخفقت فاني لست معتقدة بها والغريق يتشبث بحبال القمر ...

دخل في هذه الاطاوي شامان كرادو على ابنته شميرام فنظرت اليه فرأته باسما فاستبشرت خيرا وقالت له : اما سمعت ياوالدي بسفر ابن عمتي وتجارته الجديدة واتفاقه مع اجيبي الصراف .

فاجابها نعم ! وهذا الشاب يعرض بنفسه للاخطار ولا يشاورني .

شميرام ـ لعل له عذرا . لانه شاب وقد سدت في وجهه ابواب الرزق . ولكن علينا ان نعاونه اكراما لعمتي التي ماتت وتركت ابنها في عهدتك يا ابتي .

الوالد ـ لو طلب مني مالا لما توقفت من اعطائه له من غير منة ولكنه متكبر يحسب في الطلب مني ذلا . ومع امتعاضي منه تريني حاضرا لاسعافه بان الغي العقد مع اجيبي .

شميرام ـ هل توافق ان اقول له ذلك ان جاء لزيارتنا اليوم ؟

الوالد ـ نعم .

وبعد هنيهة جاء شمشو فرحبت به شميرام وامهـا وجلستا تحدثانه عن سفره واعربتا عن اسفهما لنوى الفراق . ثم قالت شميرام ان والدي لا يرتاح

الى هذا السفر فلو عدلت عنه أمدك بالمال اللازم للتجارة بين شمالي بابل وجنوبيها او لتعمير اراضي ابائك وفتح الترع والجداول فيها واتخاذ الزراعة مهنة لك. هل انت فاعل يا شمشو ؟ فلم يحر جوابا بل اطرق واجما كأن على رأسه الطير. فكررت السؤال عليه. فاجابها : ما كتب كتب والرجل لا يرجع القهقرى بعد ان صمم على امر من الامور وإلا كان صبيا لا يعتد به وباقواله.

فغصت شميرام بريقها. وعلت وجهها صفرة الامتعاض. وسكتت طويلا ثم التفتت الى والدتها وقالت لها ان والدي اعلم الناس بطبع ابن اخته .. وتركت شمشو وذهبت متشاغلة في اطراف البيت. وهي تقول مالي إلا طريقة واحدة لارجاع ابن عمتي عن رايه ما لي إلا السحر. ليظهر السحرة علمهم. ولتظهر الالهة قدرتها. وقد علمت ان الساحرة « زخنتم » قديرة على اسر قلوب الشباب بطلاسم ولها مواد فتانة وادعية نافذة التأثير وقطع من الصوف او الثياب تدس بين ثياب الشاب فتغويه وتسلط عليه جنة الشغف والحب. سأزور هذه العابدة في محبسها الملاصق للهيكل واتذرع بعلمها ووسائطها لاسود على قلب شمشو العنيد. . .

***

لله در من قال : « مصائب قوم عند قوم فوائد. » فما اصدق هذا الكلام على العقد الذي تم بين شمشو واجيبي وبينما كانت شميرام تنظر اليه نظرة متشائم وتوجس منه شرا كانت حترآ. تعلق به اطيب الامال وتلوح لها منه تباشير خير وبوادر فرج. اذ تعتقد انه توطئة نجاح لزواج. ورسخ في ذهنها هذا الاعتقاد بعد ان استشارت المنجمين ومفسري الاحلام. فاكدوا لها تحقيق غايتها. ولا سيما انها واقفة على شغف شمشو بها واتت كل الاحوال ملائمة لرغائب قلبها.

بيد ان احد السحرة الذين استشارتهم حترآ. افزعها بنبوءاته وتكهناته عن الاهوال والبلايا التي يصادفها حبيبها في سفره هذا واوصاها بان تزوده بالطلاسم والرقى والتعاويذ.

فاخذت طلسما وهو تمثال من الشبه (البرنز) جسمه جسم كلب، ورجلاه

رجلا عقاب ، وذراعاه مسلحتان بمخالب اسد ، وذنبه ذنب عقرب ، وراسه جمجمة صقل (هيكل عظام) وله قرنا عنزة وعلى ظهره اربعة اجنحة كبيرة مبسوطة تلك هي صورة شيطان ريح الجنوب الغربي . التي تقي الانسان من الارواح الخبيثة اذا ما علقت على باب البيت او نوافذه .

واخذت له بعض الاحجار المختلفة الالوان المعروفة بقوتها السحرية في بابل والتي تحفظ من النوائب والبلايا . اذا ما نظمت في خيط ولبست في العنق .

وارسلت هذه التعاويذ الى حبيبها خلسة واوصته بالاحتفاظ بها وباتخاذها طلسما . فاحتفى بها لانه راى فيها ذخر قوة السحر والوقاية وذخر قوة الحب وذكرى الحبيبة .

يوسف غنيمة

الى سعد

من نظم شوقي بك

مرثية تلحينية لينشدها المطرب محمد عبد الوهاب

(وهي الى العامية اقرب منها الى اللغة الفصحى)

أنا انتهيت انتو ابتدو يالله الهمم يالله العمل

اتعلموا واتوحدوا تبلغوا روحي الامل

يا (سعد) فين نور جبينك وفين فصاحة لسانك

الحزن مالي عرينك والشرق قومه عشانك

آه من الموت آه سل الاسد من عرينه

العدل كان في حماه والحق كان في يمينه

قل للعدو في وصفنا احنا الشبول بعد الاسد

الائتلاف في صفنا مافيش خلاف مافيش حسد

لغة العرب : — ناسف على ان قريحة شوقي بك قذفت بمثل هذه الابيات المسبوكة سبكا عاميا فانها تصم اسمه وصمة لايزيلها مر الدهور . وهو بخلاف ماينظمه احمد زكي بك ابو شادي فانه يفر من العامية هربه من البرص والجرب .